سوسيولوجيا الهوية في ثقافة النص الرّوائي عند وطّار
معالم الهوية في روايات الطاهر وطار
تجلياتها، أدواتها، أبعادها ووظيفتها

أ.د. علي ملاحي- جامعة الجزائر

الحديث عن الهوية، حديث عن الانتماء، والشعور بالمسؤولية الأخلاقية والثقافية والتاريخية والفكرية والوجدانية إزاء الأرض والوطن، بعيداً عن المزايدات السياسية والأساليب الديماغوجية، وخارج دائرة أي نوع من أنواع الاملاءات، سلطة كانت أم جهات مصالح الضغط الاستعمارية المادية منها والمعنوية.

ترتبط الهوية مباشرة بأرضية صعبة، وتتجلى في السلوك وفي العمل، في الفعل وفي رد الفعل، وقد أثبتت التجربة أن الغيرة على المكان الذي ينتمي إليه الشخص تكون غريزة قوية لا تنمحي، وتستيقظ في الإنسان لمجرد صدور أي موقف من شأنه المساس بهذا الشعور بالانتماء المقدس، إلى درجة أن رد الفعل عادة ما يكون عنيفا إما عن طريق الكلام أو الكتابة أو السلوك العنيف اليدوي الذي يتجلى في شكل هجوم عنيف على الخصم الذي يمس بمصداقية الهوية باعتبارها وجها من أوجه الكرامة، إن لم تكن هي الكرامة نفسها في أعمق معانيها، وهو حق مشروع لكل إنسان يبرز في صورة قناعة لا تقبل النقاش.

والمعروف عن الشعب الجزائري إيمانه الراسخ بانتمائه العميق التاريخي والثقافي والديني والسياسي وحتى العرقي، وقد أدرك الإنسان الجزائري، أنه تاريخيا ينتمي إلى الهوية العربية ولغته الأصلية هي العربية ومن أجل ذلك فإنه يمتلك الاستعداد للموت وتسبيل العمر فداء للانتماء

العروبـي ودفاعـا عـن اللغـة الأم العربيـة. لغـة القرآن، وعنـوان الإنـسان الجزائـري المخلـص للغتـه وعروبته التي يَنْتَسِبُ إليها.

ومـن الناحيـة الثقافيـة فـإن بـصمة الإسـلام تبـسط نفـسها بقـوة علـى كـل حركيتـه وتبنـي مقوماته، وترسّخ وجوده وكيانه، وبدون الثقافة الإسلامية يقتنع الجزائريون أنهم بدون عنوان وبدون معنى ومن ثم بدون هوية وبدون شخصية.

وعلـى هذا الأساس يؤمن الجزائري أينما كان وفـي أي زمـان أنـه عنصر فعال فـي الدفاع عن الهوية الإسلامية، وكان شاعر الجزائر وكبير علمائها عبد الحميد ابن باديس المعبر المثالي عن هذا الشعور العميق والدقيق في التشبث بالهوية العربية والإسلامية في قوله :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

وفي فيحاء هذه الهوية ترعرع المبدع الجزائري رغم قساوة الاستعمار وشدة نفوذه وعمق تأثيره في شرائح كبيرة غلب عليها المكر والدهاء والخيانة، فلم تتردد في المساهمة في طمس معالم الهوية العربية الإسلامية للشخصية الجزائرية.

وقد اصطبغ إبداع الطاهر وطار الروائي بهذه الروح العالية من الحس الوطني الذي تجلى على مستويات متعددة أبلى فيها الطاهر وطار بلاء واسعا في الدفاع عن الهوية الوطنية في جوانبها الكبرى، مثلما أبلى بلاء حسنا في تعميق هذه الهوية بإخلاص وعمق بصيرة، مدافعا عن هوية المجتمع الجزائري المتشبث بقيمه الوطنية الراسخة، للغة والأرض والوطن والعرض والدين، ورغم ما كان يتميز به من فكر نافذ يتميز بهذه الحدّة الفكرية المخالفة للأفكار السائدة في المجتمع الجزائري، إلا أنه كان قوي التشبث بهذه الروح التي تتسم بالغيرة على الكيان الاجتماعي الجزائري. وكان نقده اللاذع محملا برؤية ثاقبة تحمل رغبة جِدٌّ قوية في الدعوة إلى التغيير الجذري، معتقدا

في سياق ذلك أن الفكر الاشتراكي كما في بداية أعماله (الزلزال اللاز تجربة في العشق، وكذا الموت والعشق في الزمن الحراشي، وحتى في الحوات والقصر... وكان تعلقه بالتراث الشعبي الجزائري يمثل قناعة ومراهنة أمام الآخرين، مقتنعا بأن الرواية هي الفن القادر على استلهام التراث الشعبي أكثر من غيرها من الفنون الأدبية الأخرى، وقد أبرز ذلك عدد من الدارسين ومن بينهم ما قام به الدكتور عبد الملك مرتاض في كتابه التراث الشعبي في رواية اللاز. وللاهمية فقد كان وطار الروائي الطموح الذي يصنع من المقولة الشعبية (ما يبقىّ في الواد غير حجاره) رؤية ونموذجا اجتماعيا حركياً أرسلها لتتحول إلى حكمة اجتماعية قوية الصدى لا يتردد المثقفون في ترديدها[2].

ويمثل هذا الحس الشعبي الروائي درجة عالية من الوعي في المحافظة على الهوية الثقافية الشعبية للمجتمع الجزائري الذي عانى من ويلات الفكر الاستعماري الذي لا يزال يراهن على إتباعه المندسون في تلافيف المجتمع الجزائري، وخاصة الإدارة، وتمثل هذه الفكر إحدى العناصر الفكرية التي أرّقت الطاهر وطار الذي لم يكن يتردد في الضرب بقوة على هذا الوتر محرضا تارة على القوة ضد هؤلاء، وأحيانا لا يفتأ يذكر أو ينبه أو يراجع المجتمع وهو يخاطب المثقفين محفزاً، دون تردد على مقارعة كل من تسول له نفسه المساس بهوية الجزائر غير مكترث بما يمكن أن يلحقه، معتقدا في قرارة نفسه أن الحرية هي حياته التي يعيشها في كتابته الروائية، ومن ثم فهو يدافع عن مبدئه الذي يجعله دائما يرى نفسه فوق السياسة، وهو يقول : إنما فني ناتج تفاعل حضاري في منطقة معينة من المناطق العربية التي تعرضت كلها بهذه الدرجة أو تلك لريح العصر التي تحمل حينا بذور الحياة وأحيانا تأخذ بذور الحياة وتخلف بذور الموت. وأعمق من هذا قوله صراحة " أنا لست سياسيا " وكأني به ينفي عن أعماله الإبداعية هذا البعد السياسي،

لكنه مع ذلك مارس السياسة في كل أعماله، وكان سياسيا – مع الإبداع– إلى حد النخاع، وهو ما تدل عليه أفكاره الاديولوجية في أعمال مثل اللاز، الزلزال، الشمعة والدهاليز وقبل ذلك الحوات والقصر، تؤكد حرص وطار على الدفاع عن البعد الثقافي السياسي للجزائر الحرة، وهو ما جعل الدارسين وبعض الإعلاميين يصفونه بالأديب السياسي بالمعنى التام، بل اعتبره البعض أول أديب سياسي في الجزائر، وربما أرجع البعض هذا إلى وظيفته الحزبية في بداية الاستقلال بصفته مراقبا لحزب جبهة التحرير. وقد كان وطار يدافع عن نفسه بقوله أنا لم أمارس السياسة ولم أحبها، لقد مارست السياسة المضادة، واعتقد أنني أرث في خلاياي روح التمرد. روح الأوراس والأجداد، روح أرثها دون علم.

هذا التمرد، وهذا الدفاع المستميت عن الهوية الواقعية التي تتغذى منها رواياته، تدل أن وطار معبأ بهذه الروح القوية التي تؤكد انتماءه التاريخي إلى الواقع الجزائري بكل سلبياته وإيجابياته وفي روايته عرس بغل الكثير من هذا الوعي بتناقضات المجتمع، وسخريته اللاذعة من السياسة والسياسيين، وكان دفاعه المميت عن الطبقات الكادحة وانخراطه في الدفاع عن الصراع الطبقي واعتباره حلقة أساسية في رواياته دليلا على عمق الحس السياسي عند وطار. ولا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يخرج وطار من دائرة البعد السياسي وما يتصل به من اعتبارات ثقافية واجتماعية وفكرية وايديولوجية.

وحتى لا نبحر في مناقشة هذه القضية، يكفي أن نختصر فكرة الهوية الثقافية عند الطاهر وطار في مجموع أعماله الروائية بالخصوص في أبعاد بارزة تكشف الطابع الإبداعي للهوية الثقافية التي تمثل مرجعيته الأدبية التي ظل يغرف من مخزونها ونحصرها فيما يلي :

1– البعد القومي للهوية، ومرجعية هذه القومية عنده تتصل بجذور الجزائر.

2- البعد الواقعي للهوية، وقناعته بحتمية التغيير الجذري في عمق المجتمع.

3- البعد الإنساني للهوية، وإنسانية الطرح كما تبرز دفاعه عن الطبقه الكادحة.

4- البعد الاجتماعي للهوية، والالتزام بقضايا المجتمع من خلال فئاته الكبرى.

5- البعد التاريخي للهوية، وشرحه لتاريخ الجزائر انطلاقا من الجدلية التاريخية الماركسية.

6- البعد الحضاري للهوية، ودفاعه عن العربية.

7- البعد السياسي للهوية، ودفاعه المستميت عن الايديولوجية الاشتراكية في الجزائر.

8- ولكل بعد من هذه الأبعاد نقاط جوهرية بارزة في مسار الطاهر وطار الإبداعي، وقد لاحظنا في رواياته كلها، وفي حواراته النارية التي كانت تكشف كثيرا رؤية وطار الإنسانية والثقافية والاجتماعية والايديولوجية واللغوية.

دافع الطاهر وطار عن نفسه، وعن هويته الثقافية بقوله: أنا رجل بدوي أمازيغي واللغة العربية دخيلة عليّ ولا تسكنني كما تسكنني لغة أمي وأبي ومحيطي، وأنا ابن عائلة متدينة وتقليدية وتعليم باديسي نسبة إلى مدارس جمعية العلماء المسلمين التي كان يرأسها الشيخ الجزائري عبد الحميد ابن باديس) وزيتوني نسبة لجامع الزيتونة في تونس. وفي الوقت الذي كان عليّ أن أكمل مشواري مع الفقه والنحو والصرف والفرائض، وجدتني أقرأ الأم لغوركي والعقب الحديدية. لجاك لندن وأعمالا روائية عظيمة أخرى لعمالقة آخرين، وبلغ تأثيرهم الحدّ الذي زعزع البدوي الأمازيغي والطالب الزيتوني التقليدي وزحزح الشخص الأصلي الذي سكنني لصالح شخص آخر.

إن مفهوم الهوية عند الطاهر وطار هنا يبدأ بهذا النسب الذي يختفي في أعماق الإنسان والذي يتحول مع متغيرات الحياة الواعية إلى رؤية حضارية، جعلت اللغة العربية في واقعها تتحول إلى حس فلسفي اجتماعي ومطلب واقعي يتشبث به وطار ويدافع عنه ويدخل بسببه في صراعات

فكرية وثقافية مع الكثيرين، بل اكسبه ذلك عداوات كثيرة، جعلت منه المدافع الشرس عن اللغة العربية، وهو غير العربي، يرفع راية العربية، مع أنه كان لا يحب أفكار العرب ويوجه لهم نقدا لاذعا في كل تصريحاته، بل وفي ثنايا رواياته التي كان دائما يغذي فيها الفكرة التي تحرج الكبرياء الفارغ لدى العرب الذين طعنهم الاستعمار في العمق في عقر دارهم وعلى مستويات عدة إلى جانب ضربهم البعيد الأذى في قضيتهم الجوهرية فلسطين.

اللاز بِصفته بطلا ثوريا، والحاج كيان ببعده المستلب، وما حملته رواية الولي الطاهر من تداخل بين التاريخ وتحولات الواقع، وما خزنته روايات وطار كلها من حس ديني وإديولوجي، وغير ذلك كان الهدف منه خدمة الجزائر، فكريا وحضاريا، وهو الذي قال بصوفية عالية ما كنت لأكون كاتبا لولا الثورة التحريرية، لم يتردد في إضفاء قداسة عجائبية على الثورة الجزائرية التي ظل يقدسها ويعتز بها، وهو ما يقودنا إلى استخلاص فكرة مفادها أن الطاهر وطار كان يؤمن بالطابع الثوري للرواية ويؤمن من خلال ذلك بالهوية الثورية للإنسان الجزائري.

تمثل رواية الزلزال في تجربة الطاهر وطار في بعدها التاريخي وجها من أوجه الحداثة في المجتمعات العربية، من خلال تأسيسها لمفهوم عصراني للمجتمع العربي المنشود في الوعي الروائي عند الطاهر وطار، تتغذى في سياق ذلك الهوية الثقافية من أفكار آمن بها الطاهر وطار اليساري الثوري الأمازيغي العربي الإسلامي في الوقت ذاته. وكأني به يريد القول أن حضارة العرب ليست حكراً عليهم بل فعل إنساني وكل نشاطهم هو جزء لا يخرج في طابعه عن المخزون الإنساني الكبير، وهو بذلك يقدم رؤية استشرافية للحس الثقافي بما يتضمنه من روح الانتماء والشخصية والهوية، بعدٌ ظلّ وطار يحمله في مجموع أعماله، وقد اتضح بداية في الزلزال التي حمّلها ببعد اديولوجي قوي، تحدى فيه الاستعمار وقيمه التي رسّخت في المجتمع الجزائري، ورفع

مـن أجـل ذلـك شـعارات التحـول الاشـتراكي ومـا يرافعهـا مـن معطيـات الواقـع، واقـع المؤسـسات الاجتماعية والثقافية التي تختبئ في عناصرها أدوات الهوية. ولذلك يقر الدارسون أن رواية الزلزال مثلا تكشف في جانب كبير منها عن الكيفية التي أدّى بها التحديث الاشتراكي بوصفه بديلا عن رأسمالية الدولة التي تتطلب رد فعل عدائي من طرف المتضررين من نتائجها [3]. إن هوية الجزائر تتجلى صورتها عند وطار صورة ما بعد الاستقلال مباشرة. بعد أن رسم معالم الهوية في رواية اللاز التي سخّر فيها طاقته الإبداعية في إبراز معالم الهوية لجزائر ما قبل الاستقلال، وقد استطاع في رواية الزلزال كشف طبيعة الهوية القلقة التي غطت بتناقضاتها. الراهن الجزائري بعد الاستقلال على مستويات مختلفة اجتماعية وثقافية بالخصوص وقد كانت شخصية عبد المجيد بوالأرواح بكل خصوصياته الاجتماعية والفكرية والإعتقادية بمثابة الوعي المفتوح على المستقبل، وعي مشوب بجنون، بفعل غير مقبول من طرف الواقع وهو ما يبرره جنون بوالأرواح خاصة عندما يقول قسنطينة انتهت وزلزلت زلزالها حين وصفت العبيد موضع السادة. وحين كان الرعاة والحفاة يدخلون المدينة من الريف ليقتلوا الأسياد. ويخرجوا دون أن يردهم أحد....

لقد حاول وطار إقناعنا بهذا الطرح الاشتراكي للهوية الجزائرية وقدم مبررات لذلك منطلقا شي غيفارا أو فكرة العدالة الاجتماعية عنده، كما حاول أن يتخذ من القرامطة ومن عمر بن الخطاب ومن الرسول صلّى الله عليه وسلّم وما كان يحمله من عمق إنساني لمفهوم العدالة حاول أن يتخذ من هذه الأفكار وغيرها حججا لتبرير الهوية الاشتراكية التي تقوم على فكرة الصراع الطبقي الحضاري بين المفاهيم أولا وبين الفقير والغني ثانيا. وقد اعتبر هذا الأمر بمثابة فعل ثقافي بل ورأى في هذا الفعل هوية الجزائر الفاعلة. وانتهى وطار في هذا وذاك إلى الدخول في صراع ضاري من أجل الهوية الثقافية الاشتراكية مع من سماهم بالرجعيين، واثبت بشراسة وحِدّة أنه

مناضل شرس إسلامي ماركسي عربي أمازيغي، معادي للفرانكوفيلية التي لم يتردد في وصفها بكل النعوت غير الحضارية، وهذه القناعة هي التي جعلت منه شخصية ثقافية مميزة لأنه دافع عن المبدأ الذي اقتنع به في مجموع أعماله، بدءا من اللاز والزلزال. وكثيراً ما دفعته غيرته على العربية المبتلاة بالفرنسية لسلبية الجزائريين بعد الاستقلال إلى القول بأن الجزائريين قبل 1960 أي قبل الاستقلال كانوا أقل فرنسية من الآن بسبب العامة المتبعة التي تكرس فكرة تعميم الفرنسية تحت غطاء خدمة ديمقراطية التعليم. يعبر وطار عن شديد أسفه واستيائه لهذه السياسة الاستلابية التي تنخر الهوية الوطنية ولهذا نجده يبرز اعتزازه بشخصية جمال عبد الناصر القوية في دعوته إلى التحرر وإلى الوحدة العربية ومن أجل المحافظة على الهوية العربية وما تحمله من مشاعر سامية وثورية.

الطاهر وطار شديد الحرص على إثبات هويته وربط جذوره بالجذور الحقيقية الطبيعية التي يرجع إليها، وهو على جزائريته، لا يتردد في الإفصاح عن موقفه مما يحدث حوله بقوله لاميل حبيبي في حوار مفتوح أجراه معه: "ما يحدث في الجزائر يعود إلى طبيعة إنساننا الجزائري نفسه، الإنسان الجزائري بحكم موقعه على الساحل المتوسط، يستهلك حضارة ولا يصنع حضارة، يأتيه الفينيقيون، يأتيه البيزنطيون، يأتيه المسلمون، يأتيه الأتراك، يأتيه الإسبان، يأتيه الفرنسيون، وعادة ما يأخذ فقط ما يحتاج مما أتاه، ويتمرد على الباقي، كان البدو البربر يثورون أمام البيزنطيين والرومان، بغزو بعض القرى الفلاحية التي بناها الذين ترومنوا من الجزائريين الميامين، بقيادة القديس سان دوناكلوفس وهو جزائري ثائر، وفي نفس الوقت الذي تمرّد فيه سان دوناكلوفس بقيادته الفلاحين البدو، كان القديس سانت أوغستين وهو جزائري تعلم في قريتي النحو والصرف والبلاغة مع الرومنة مدينا للثائر دوناتيوس."[4]

يكشف هذا الاعتراف حقيقة الانتماء التاريخي للمجتمع الجزائري ونزعته ورغبته في العيش الكريم، كما يكشف صعوبة الواقع الذي كان يمثل تحديا كبيرا أمام الإنسان الجزائري البدوي الذي مارس الرفض منذ القديم بأشكال مختلفة. وداخل هذا الفضاء البسيط وانطلاقا منه، من هذه القرية التي تمثل الكون الأكبر (الجزائر)، يقدم الطاهر وطار إشكالية الهوية الجزائرية بقوله: "نعم قريتي مادور اسمها مادورفس ، وفيها نشأ أول روائي في العالم ابوليوس صاحب الحمار الذهبي الذي تقول عنه المراجع إنه لو عاش الآن لكان جزائريا. وهو في الواقع عاش في شخصي وشخص كاتب ياسين ، أيضا لأنه من هذه القرية ما دور، وكان في نفس الوقت القديس أوغستين يدين القديس دونا، دائما في الجزائر مُتَرومنُون ورافضون لروما، متفرنسون ورافضون للفرنسة[5] .

ويضيف الطاهر وطار رسم إشكالية الهوية الجزائرية عارضا لبعض جذورها التاريخية بقوله محددا أهم الطوائف التي كانت تمارس هذا الرفض "كانوا مسيحيين، نعم كانوا مسيحيين، وكانوا يهوداً أيضا، الكاهنة التي قاومت الإسلام يقال أنها كانت على الدين اليهودي وكل ما يحدث في العالم يصل الجزائر بسرعة، يصل على ساحلها ويظل يتفاعل بالجزائر بطبيعة خاصة نابعة من تضاريسه التي تشبه طبيعة الكريتي في اليونان، لا يعرف الوسطية، يدخل طارق بن زياد... نعم مثلا يدخل طارق بن زياد اسبانيا، الأندلس يومها، ببساطة يحرق سفنه ويقول لأصاحبه العدو أمامكم والبحر من ورائكم، وهذا خطأ عسكري لكنه خطأ جزائري. عقبة بن نافع يدخل شمال إفريقيا، يمر بليبيا وتونس ثم المغرب، يعود للجزائر وما أن يهين الجزائري حتى يقتله، وفي نفس الوقت يقيم له مزارا شبه معبد أو مسجد إلى الآن باسم عقبة بن نافع"[6].

هذه الهوية التاريخية الثقافية التي يرسمها وطار بأسلوب واضح في شكل مسلمة يقصد من ورائها ترسيم الحدود الثقافية للجزائر التي تعيش في مخيلة الطاهر وطار والتي تشكل وعيه ورؤيته،

التي تنتهي عند هذه المعطيات بل تتسع إلى ملاحظته الدقيقة التي تتصل بالخيزران أم هارون الرشيد البربرية التي ما أن شهدت الخلاف بين ولديها حتى قتلت الآخر لصالح هارون الرشيد بكل برودة أعصاب، للجزائري ردود فعل، عسر هضم، الحالة الحضارية، الفكرة، هذا المغزو باستمرار من طرف الآخر، ليس له مرجع حضاري سوى الدين عندما دخل المسلمون وجدت كاهنة قادة حربا طويلة ضدهم، وعندما انهزمت أحرقت كل الجبال، كل المزارع احرقت الأرض، وعندما دخل الفرنسيون لم يجدوا سوى رجل دين أيضا هو الأمير عبد القادر، نصب نفسه بقدرة قادر أميرا، وحمل السلاح وكافح 17 سنة ثم انتقل إلى الشرق وصار رجل تسامح،رجل حضارة، الشاهد أن الجزائري ليس له مرجعية، ليس كالمصري له امتداد خمسة آلاف سنة ملوك فراعنة، ليس كالعربي مثلا في الجزيرة العربية يعرف نسبه من اليوم إلى (كالسومرين ، ليس كالفلسطينيين، ليس كالفينقيين..." [7]

هذه هي معالم الهوية عند وطار، يختزلها في هذا الحوار يتردد في توظيف هذه المعطيات التاريخية ويضفي عليها حسا دراميا وطرافة أدبية، كما هو الشأن في روايته السمعة والدهاليز.

لم يتردد الطاهر وطار من خلال ما سبق أن يصوغ لنفسه عالمه الشمولي الذي صاغ تلافيفهُ: أنا عربي حضاريا، أمازيغي عرقيا... كتب بالعربية، على أمازيغيته، التي لا تقل عن (ترقية) إبراهيم الكوني وأمازيغيته، التي حملها في دمه وإبداعه الذي عبر فيه عن الصحراء الكبرى تعبيراً في قمة الأداء والبلاغة والتعبير رغم أنه لم يعش في الصحراء بالشكل الذي يسمح له بمثل هذه القدرة الإبداعية.

إن الهوية بهذا الشكل دم وشعور بالانتماء، متجذر في كيان الإنسان بوصفه وجدانا عميقا تتضافر فيه مجموعة من القيم الحضارية التي تعبر عن الهوية العميقة للمجتمع الجزائري العربي الأمازيغي المسلم.

ومن ثم فإن وطار لا يتردد في توجيه الأصابع متهما فرنسا بالوقوف وراء اغتيال المثقفين خلال العشرية السوداء التي عاشتها الجزائر مع الإرهاب بمختلف مواصفاته، وهو بذلك يؤكد إصرار دور فرنسا المتجذر في ضرب الهوية الوطنية من خلال القيادة الفرنسية التي ضيعت الشعب الجزائري مثلما ضيعت الثورة...[8]

كان وطار مأخوذا بالرمز الكبير أحمد بن بلة الذي آمن به باعتباره رمز السيادة الوطنية ورمز الحركية ، وقد رآه في صورة أحد أولياء الله الصالحين... وكان غاندي الجزائر– بتعبير الناقد الجزائري يوسف وغليسي، غاندي الجزائر الذي آمن بقداسية شخصية أحمد بن بلة الذي صاغه روحه البطولية في شخصية على الحوات في رواية الحوات والقصر. وقد تعرض من أجله بعد انقلاب 65 لاضطهاد كبير مادي ومعنوي جسدي ونفسي. [9]. وقد ظل الطاهر وطار وفيا لهذا المبدأ الذي رأى فيه هويته السياسية وهوية الجزائر حتى آخر أيامه، وقد كتب بموجب ذلك قصته القصيرة (الهدف الحاسم) التي أهداها إلى الرئيس أحمد بن بلة، وهو حرص سياسي دليل وفاء لا غبار عليه ، خاصة جاءت أياما قبل مرضه [10].

إن الطاهر وطار بكل ما فيه من قوة وضعف، يبقى محملا بهذه الروح الوطنية التي تنبض بهذا الشعور اللامحدود بسعة الجزائر، وقدرتها على أن تكون بيتا حضاريا آمنا تتلاقح فيه الأفكار، وتنطلق فيه ثورات التحرير، وتتعدد فيه الحساسيات والانتماءات الفكرية والاجتماعية واللغوية والسياسية وتتراجع فيه بالتدريج كل النَزَعَات الضعيفة، إنها الهوية المعاصرة للجزائر التي نَعْتز بأن

تكون العربية لسانها ولسان حالها... وهو ما دافع عنه الطاهر وطار بشرف ودفع مقابل ذلك غاليا كما يقول [11].

تجليّات الهويّة في إبداع الطاهر و طار

الهويّة ... و أبجديّات الموقف الحميمي (12):

عرفتُ الطاهر وطار... معرفة الحبيب... القريب الملازم له على مدار أكثر من خمس سنوات ... جمعتني به الجاحظية كجمعيّة ثقافيّة، و عرفت دفاعه عن حقائق كثيرة تَتصّلُ بالهويّة والشّعور بالانتماء، و من ثمّ عرفت مواقفهُ و كيفيّة دفاعه عن هذه الهويّة بطريقة تكشف عن إيمان عميق بضُلوعه المُباشر في الدّفاع الحاد عن هويّة الجزائر الثقافيّة، و كانت مجلة التبيين الثقافية نافذة يُطل منها تشبُّث وطار بهذه الهويّة بما يُرافقها من إحساس وُجداني تاريخي وإبداعي وثقافي وإيديولوجي، وقد كانت التبيين ومن خلالها الجاحظية بيتا أليفا للثّقافة، من يدخله ثقافيا يكون آمنا إلى حد قول كلّ شيء برأي حاذق و جرأة لا يُمارس عليها القص و المُصادرة. وفي الجاحظيّة تأسّس الرأي و الرأي الآخر الذي صاغه وطار في شعار رسمي آمن به و دافع عنه وفي الجاحظية وباسم الجاحظية التي كانت خُلاصة فكره الإبداعي الذي اختزله في عدد من أعماله السردية، تجلى الخلق الإبداعي و تجلّت الرّؤية و تجلّى المعنى الحضاري، و رغم كل ما يُمكن أن يُقال عن حكيم الإبداع في الإبداع الجزائري فإنّ عناده و دفاعه العنيد عن مواقفه لم يكن إلاّ نزعة ذلك (الشاوي) الذي تجذرت فيه عدّة قيم صنعتها فيه مساجدُ بلدته التي رضع فيها حليب الانتماء الأول "مداوروش".

لذلك كثيرا ما كنّا نعجز عن تفسير أسباب غضبه الشديد أحيانا و الذي كان يَنبثق في إبداعه ويتجلى واضح المعالم. وقد اهتديت إلى ذلك في لحظة جلوس معه، عرفت فيها أنّ الرّجُل كان يتصرف في أحيان كثيرة معنا نحن طاقم الجاحظية التي كان يُواظبُ الجُلوس فيها جُلوس الموظف المواظب على عمله، بطريقة يُخاطبنا فيها من خلال اللحظة الإبداعية التي يكون فيها يتمثلنا شخصيّات سرديّة، يُكلّمنا

بدفء تارة ، وبعصبية حادة أحيانا أخرى إلى درجة اللامعقول وفي خضم ذلك نرى فيه الدكتاتور الغليظ القلب، لكنه لا يلبثُ، أن يعانقنا بكلمات حانية ومحبة لا حدُودَ لها .. إلى درجة نستغربُ فيها هذه الشخصيّة المُزدوجة في هويّة الطاهر وطار.

في كل هذا وذاك كانت أعمال الطاهر وطار تتلقى بشكل مُكثف وكان وطار المُبدع يتجلى كبيرًا في دفاعِه المُستميت عن هوية الإنسان والحضارة واللغة العربية ووحدة التراب ونقد الثورة وكشف السيئات والحسنات في تاريخ الثورة وفي مسار حركة سياسيّة وإيديولوجيّة و دينيّة و ثقافيّة عرفها المجتمع الجزائري بكل طوائفه ونزعاته .

وقد كانت روايتُه " الزّلزال" مُعبّرة عن هذا الإحساس بالهوية وهو ما يُجسده في هذا المشهد السردي: "الزلزال الحقيقي إحساس ... أنا يا سي عبد المجيد بولرواح أحسست بالزّلزال يوم كان الرُّعاة و الحُفاة و العُراة يدخلون من الرّيف و القُرى ليقتلوا الأسياد هنا و يخرجوا ، يومذاك أحسَستُ بالزّلزال الحقيقي ، إيه كم آغا، و كم باش آغا، و كم قائد، و كم ضابطا مات على يد راعي أغنام، أو خمّاس أو حطّاب أو فحّام أمام هذا المطعم" (13) و قد جاءت الرواية في الجوهر مُعبرة عن الزلزال، أو التغيير السياسي الهائل الذي حصل في تاريخ الجزائر بعد الاستقلال و ما رافق الصّراع بين البُرجوازية الصغيرة و الثورة الاشتراكية، و هذه هي الهوية الجديدة التي يُقدّم وطار معالمها في مقدمة "الزلزال" " الجزائر التي بدئت بعد قرن و نصف من الاستعمار، من الصّفر، الشّرطي جديد، و المُوظّف جديد و الحاكمُ جديد و التاجر جديد، و حتى الموت و الحياة كلاهما جديد، في كيان انسلخ من كيان آخر، و راح يُقيم أطر و أسس شخصيته" (14). و قد أصرّ في هذه المقدمة أن يُعلن انتماءه و انتماء الجزائر بوجه خاص إلى الوطن العربي، و قد قدّمَ هذه الرّواية بالعربيّة ليُثبت للمشارقة من المثقفين بشكل خاص أن الهوية التاريخية والثقافية اللغوية للجزائر المُستقلة راسخة وأصيلة: " ولعلني أتمكّن في النهاية من إقناع المُثقف في المشرق العربي بأنه يوجد في الجزائر أدب باللغة العربية، و أن اقتصاره على معرفة كاتب ياسين و

مالك حداد لا يعني تعمُّقا في المعرفة، فهؤلاء عملة صعبة، تجعلها أداتها في متناول العالم أجمع، بل قد يعني تقصيرا ليس في حق زملاء يحاولون الإسهام في إثراء المكتبة العربية، أو في حقّ شعب يُجاهد لاستعادة إحدى مُقومات شخصيته التي استُهدفت و لا تزال تُستهدَف للغزو الاستعماري و الامبريالي ، و إنّما في حقّ نفسه بالذات، كمُثقف لا يُكلف نفسهُ عناء إطالة عُنُقه، ليرى من هناك خلف بعض الأسماء التي وصلته عن طريق الترجمة ... و إنني كواحد من كتاب اللغة العربية أفتخر بهذا و أعتزُّ به"(15) .

إن رواية الزّلزال تتضمّن عِدّة نِقاط جوهريّة تُلخص وجهة النظر الإبداعيّة في مسألة الهويّة الجزائرية، إنه مؤمن بانتمائه إلى الجزائر الحرة المُستقلة في إثبات الشخصية الوطنيّة و على الإخوة المشارقة الاقتناع بحقيقة الخندق الحضاري الذي تنتسبُ إليه الجزائر. و على العالم أن يعرف أنّ هذه الهويّة تحققت على أرض الجزائر بفعل المقاومة، و لم تكن مِنّة من الاستعمار، شعبٌ جاهد و كان الجِهادُ أحدُ مُقومّاتهِ.

الهوية السياسية و أدبيّات الكتابة عند وطار:

ترسم معالم هذه الهويّة عند وطار ما جاء في رواية الزّلزال – المُقدّمة تحديدا – (16) عندما يقول" إنّ الأدب الاشتراكي و البطل الاشتراكي لم يُولدا في الجزائر كما أشار إلى ذلك بذكاء المرحوم جان سنال، إلا في الأدب المكتوب باللغة العربية" و في ذلك تأكيد على دفاع وطار عن الإيديولوجية الاشتراكية، و اقتناعه بها بوصفها الإطار السّياسي المُنظم بالضرورة لحياة المجتمع الجزائري حديث الاستقلال، لذلك نجدُه يُهدي روايته هذه إلى المُناضلين العُمّال و إلى كل من بنى و يبني الثورة الزراعية في الجزائر، مُسهما في وضع أُسُس صحيحة لمجتمع ديموقراطي مُتقدم "(17) و لعله لم ينس هذه القناعة التي تجعلُه يُدافع عن الهويّة الثوريّة للجزائر عندما يُهدي روايته الولي الطاهر يعودُ إلى مقامه الزكي(18) إلى عملاقي الفكر العربي المعاصر المرحوم الدكتور حسين مروة و محمود أمين العالم و هما نموذجان بارزان في الفكر العربي الاشتراكي الذي آمن به وطار حتى آخر لحظة من عُمُره، إلى

درجة أنه فضّل حزب لويزة حنون و هو طريح الفراش قبل وفاته(19) و قد اقتنع – دون جدل– أن الاشتراكية هي الحل الاجتماعي لحياة واستقرار و تحوُّل الجزائر، و قد أصاب وطار ذُهول واسع و هو يَرى القُطب الاشتراكي ينهارُ أمام عينيه، لكنه لم يتراجع عن هذه القناعة و كان يحلو له التباهي بانتسابه للفكر الاشتراكي(20) و من الإيمان بالهوية الإيديولوجية الاشتراكيّة ، رغم نبوءته لسقوطها قبل الأوان.

الحقيقة النقدية أنّ وطار كان نموذجا إبداعيا واعيا إلى درجة الإثارة في كتاباته القصصيّة و المسرحيّة و الروائيّة منذُ بداية مساره الإبداعي السّردي مع بداية 1955. و لم تكن مجمُوعته القصصيّة دُخان من قلبي إلاّ نبرة من نبرات ذلك الروائي القادم إلى الفضاء السّردي بنبض يحمل لغة المتحدي الواثق من نفسه، و هو الذي آمن إلى حد النخاع بهذا المبدأ الذي عبر عنه في حوار له مع جريدة السياسة الجزائرية بتاريخ 30 /31 ديسمبر 1994 بقوله: في عصر الظلام نحتاج فقط إلى شمعة كي تضئ"(21) ، و لم يفوت ذلك و أبدع رواية بهذا المعنى الذي كان بالنسبة له هوية ثقافيّة في رواية سمّاها الشمعة و الدهاليز(22)، خلط فيها الواقع بالخُرافة و السياسة بالأكذوبة، و خلط التاريخ بالدين و الإديولوجيا بالطبيعة، أخلط فيها الحسابات و دخل إلى كل الأفكار، و أحدث خلخلة في الألقاب و الأفكار و الإيديولوجيات و الأديان " لقد أفلح السحرة يا سيدي الطبيب و عصا موسى جامدة لا تسعى"(23) و قوله: " الثورة تُهدّم الثوار، و نُريد أن تُبنى الثورة بالخونة و المُضادين"(24) إنّ وطار مُؤمن بأن الهوية الثورية للجزائر تُمثل عنوانا ثقافيّا و إيديولوجيا و حضاريّا و لا نقاش في ذلك.

المقروئية ... و معالم الهوية الإبداعية عند وطار:

قرأت و طار، و قرأتُ عنه، و كان يترسّخ في مُخيّلتي هذا الكاتب العنيد في تعامله مع نفسه، و مع الآخرين و مع الواقع و مع التاريخ و مع الزمن و مع المكان، و كيف يتكبّد عناء فكريًّا و معاناة متعددة و هو يُعيد إنتاج الواقع و إنتاج ذاته، و كانت كثرة الكتابات عنه دليلا دامغا على ثراء فكرة

الهوية و جدل الهويّة في إبداعه، و قد كان وطار كتابا مفتوحا إلى درجة الإبهام، يقول من خلال إبداعه كل شيء، لكنه يضعك كقارئ في حيرة؛ هل تتعاطف معه أم تتعاطف مع بطله، مع اللاز أم زيدان أم ضدهما ، مع الحاج كيان أم ضده .... الخ.

و لأن الجزائر بحاجة إلى من يفتحُ سيرتها الذاتية الثقافية و التاريخية و النفسية والاجتماعية، فقد كان وطار جريئا إلى حد الممنوع، و قد حاولت دراسات كثيرة في هذا الشأن مُقاربة نُصوصه بشكل موضُوعي دُون جدوى لأنّ أغلبَها وقع في القراءة الوُجدانية في مُحاولة لكشف شخصية المُبدع الطاهر وطار الذي آمن بالكتابة، دون الوقوع في فخ الأمر الواقع من الكتابة، بمعنى آخر إن وطار لم يستسلم لكتابته الإبداعية لأنه استطاع تجاوز الذات إلى آلية جديدة من الإبداع الذي لا يسمح لك بكشف شخصه عبر ما يكتب، و هو ما جعل البعض يدينونه لأنه خرج عن قناعاته الإيديولوجية في رواياته ما بعد التسعينات بدءاً من الشمعة و الدهاليز. إذ تمثل كل رواية نموذجًا دالاً مغايرًا للآخر إلى حد المفارقة . ولا أدل على ذلك الصيغة الخطابية التي كتب آخر رواياته : "قصيدٌ في التذلل".

قال وطار بصوت مرتفع " أنا كاتب و لست مدّاحا" (25) و قد عشتُ فنّانا و لم ألهث وراء المال و الشهرة"(26) و كانت رسالته إلى سعادة سفير الولايات المتحدة بالجزائر في 10/07/ 2000 ردّا على دعوة كتابية وُجهت إليه "سعادة السفير مهما كُنا أغبياء فإن عُيُوننا مفتُوحة، و مهما خجلنا و راعينا مشاعركم فإنه لا يسعنا إلا أن نقول لكم : بعضنا يكبر و بعضنا يصغر و حلمنا الأكبر يكبر و يكبر"(27) إنّه يُصرّ على الهويّة التاريخيّة للجزائر المُكافحة التي لا تُنكر حق الضيافة، لكنها تُحافظ بإصرار على كرامتها بإكبار مُتزايد، و قد أصرّ على إثبات هويته هذه " أعتقد أنني جزء لا يتجزأ من تاريخ الجزائر، و تاريخ الجزائر لا نستطيعُ نشره كلّه" و قد صاغ لنا ملامح شخصيته قائلا " الطاهر وطار هو إنسان بسيط و عميق في نفس الوقت، مُشبع بالتُّراث و مُشبع بالحداثة، و هو في آخر

الأمر زاهد في متاع الدنيا بقوة، و الطاهر وطار مُؤمن بتاريخ الجزائر و مستقبلها، و لهذا يُضحي يوميًّا من أجل أن يكون مستقبل الجزائر أحسن ... هذا هو عمّي الطاهر" (28)

إن الكثير من القراءات التي قُدّمت عنه، و قد جمعت كمًّا هائلا منها في كتاب: هكذا تكلم الطاهر وطار في ثلاثة مُجلّدات بالإضافة إلى مُجلد رابع خاص ببعض حواراته و مقالاته و مقالات إعلامية عنه، كلها مادة كفيلة بأن ترسم ملامح الهوية في إبداع وطار، كله دون استثناء و هي كفيلة بأن تجعلنا بحاجة ماسة إلى الاعتداد بهذا القلم الخصب، والمُؤكّد أنّ أعماله الإبداعية تُمثل حقلاً خصبا قابلا للتناول النقدي و الثقافي، و ليس هناك ما يدعو إلى الشبهة، لأن وطار مُبدع حقيقي، لما تضمنه إبداعه من قيم خلاقة أقرّها الدّارسون، جعل فيها شخصياته تمثيلا خلاقا لتلك الهوية المتعددة المعالم و التي رسمها بمهارة في كل رواياته، اعتز فيها في نهاية المطاف بالشخصية الجزائرية و هو ما يُؤكده بقوله إنّ طريق الشاوي بين عينيه"(29) و الجزائر مُعجزة و لو لم تكن للجزائر هذه الخاصية لتفككت، فلو أنّ ما حدث في الجزائر حدث في أي قطر لأدّى به الأمر إلى التفكك لا محالة... " للجزائر خاصية هي أنها دائما و أبدا تُحاصر مجال المظالم أو الظلم بتعمُّد اللامبالاة كي لا يكبُر الحريق و يتعمّمَ" (30)

إن قراءة وطار تُحيلنا على الهوية التاريخية و الهوية الوطنية و الهوية الحضارية التي تجعل من الجزائر وطنا خصبا ، تجعل الكاتب الطاهر وطار يعلن انتمائه الصّريح إليها مع الاستماتة في الدفاع عن أمجادها و مُكتسباتها بجدارة و استحقاق.

إن الوعي بما يحمله من معاني الكلمة عميق في الإبداع الجزائري الثوري المكتوب باللغة العربية، و هذا ما يؤكدُه مقاله النقدي الذي أعدنا نشره في كتاب هكذا تكلم الطاهر وطار بعنوان بوادر الوعي الطبقي في الرواية العربيّة.(31) وهو اعتراف صريح ثقافي وفكري وفلسفي بخصوصيات الهوية

الجزائرية التي آمن بها وطار ودافع عنها بقناعة. ومع الأسف فإن بعدها الإيديولوجي لم يتحقق في الواقع كما حلم به وطار.

هوية الانتماء الوطني في إبداع وطار:

الطاهر وطار الذي اعتذر لبلدته مداوروش مسقط رأسه الذي كان في 1930، و رفض بلُغةٍ صاعقة الوُقوع فريسَة لإغراء عِصابات قُطّاع الطُّرق.

تشبّث الطّاهر وطار بهويته الوطنيّة كتشبّث الطّفل بأمّه، و اعترف أنّ ثورة التّحرير كان لها الفضل في صياغة شخصيته الإبداعيّة و بصراحة واضحة قال:"ما كُنت لأكون كاتبا لولا الثّورة التّحريريّة" (32) و من خلال ذلك يُعلن عن انتمائه الأسري " أنا ابن أسرة بربريّة جزائريّة تتكلّم العربية" (33) و قد كتب روايته اللاز في مقهى شعبي" (34) و في ذلك تتجلّى نزعة وطار و بُعد الهوية عنده: وطنيٌّ مؤمن بالجزائر، و مؤمن إلى حدّ الإقرار بفضل الثورة التّحريرية في صقل موهبته الرّوائية، مُؤمن بانتمائه البربري العرقي، لأنه كذلك بربري بدون نقاش، و هو لذلك جزائري دون نقاش، و هو يتكلم العربية لأنه جزائري في الأوّل و الآخر و لا حرج في ذلك ولا جدال وهو من هذا المنظور مؤمن بانتمائه إلى الفصيل الاجتماعي الشّعبي الواسع ..

وكأني به يُعلن أنّ إبداعه من عُمق الفئات الشّعبية، و لا توجد فيه اللغة الديماغوجية و من ثمّ فإن إيديولوجيته في اللاز هي الإيديولوجية الشعبية. و هذه الحقيقة لا يُمكن الإقرار بها لأنّ اللاز بكلّ ما تقوله الرّواية هُو نبتة شيوعيّة محضة بكل المعاني الفلسفية، و رغم ما تعرّض له من اضطهاد وضيق بعد انقلاب 1965 فإنه تشبّث بهذه النّزعة. وهو حرّ في كل الأحوال.

هاجم الفرانكفونية هُجوما لاذعا، و دافع باستماتة عن الهُويّة العربيّة للجزائر " أنا أدفع غاليا ثمن موقفي من اللغة العربية"، و رأى في التيار الفرانكفوني السّبب المُباشر للأزمات السّياسيّة التي عاشتها الجزائر، حتّى أنّه لم يتردّد في القول أنّ " القيادة المفرنسة هي التي ضيّعت الثّورة "(35) وهي مواقف

بقدر ما فيها من الحق، فيها كذلك من التحامل لأنّه لا يُمكن إنكار الذين خدموا الجزائر رغم انخراطهم في هذا التيار، و تشهد الحقائق التاريخية أنّ بعضهم انخرط في التيارات الوطنية بكل قوة. ودافع عن هوية الجزائر العربية الإسلامية ،مثلما دافع عن ضرورة تطبيق العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات ولم يمسس الهوية الأصيلة للجزائر ومولود فرعون خير مثال.

مع ذلك فإنّ الطاهر وطار المُبدع المُشاكس صاحب الحس الإبداعي السّياسي النّاضج الذي امتد أكثر من خمسين سنة، قد استطاع أن يعطي لمفهوم الهوية في إبداعه أبعادا مختلفة تجلّت كثقافة وكرؤية وكمبادئ آمن بها ودافع عنها في كل رواياته، و لم يتراجع عن مبادئه، بل ظلّ يهتف بكل قوّة بهذه المبادئ من خلال أدوات تعبيرية واسعة، و لم تكن حواراته أقل بعدا في الدّفاع عن الهوية الجزائرية، و قد حق له أن يوصف بالحكيم أوزَرَادِشت الجزائر.

عمق الإبداع و هويّة الموقف أو الهويّة الإبداعيّة عند وطار:

إبداع الطاهر وطار رهيب في بُعده الثّقافي بكل المعاني، و من خلال كل رواياته نلمس ذلك النّضج الواعي بما يرسمه من مشاهد سردية إلى درجة التشبث بمحلية اللغة و استعمالها بذكاء في الحوار الروائي بهذا الشّكل تقول " لقد حسمنا هذه المسالة يا(يَمَّة) يقصد يا أمّي(36) و قوله مول البيت رزقه إليه.." و يُقصد بها زوجي أو صاحب بيتي، و في ذلك إيحاء إلى نمط الهوية التي يُدافع عنها وطّار جزائريتُه هي المقام الأوّل، و حتّى حين يُعلن عن قراءة المشهد السّياسي فإنه يعرف كما فيه من مؤشّرات لذلك حين يستعيد الحالة التسعينية السياسية يقدم بصدق الرحى السياسيّة التي كانت سائدة دون تصرف في لغة الشارع السّياسي الذي كان يحمل شعار: عليها نحيا و عليها نموت" (37) وهو الشّعار الذي تحوّل فيما بعد إلى نزيف دموي في الشّارع و كأنّي بوطار كان يقول أسرعوا إلى تحليل هذه الرّؤية السياسيّة و مُعالجة عواقبها.

وهو الاشتراكي إلى حدّ النخاع لم يتردد في رسم المشهد السياسي لسقوط الاشتراكية، و طُغيان الفراغ السياسي، وقد تنبأ هو نفسه كما يقول بزيف الاشتراكية و بهذا الشّكل صاغ هذه الرّؤية: اجمعوا على أن الاشتراكية لا تنفع، كما اجمعوا على أن الرأسمالية بلية البلايا... و كان عليّ أن أُتمم ما بدأه أبي" (38) لقد استطاع الطاهر وطار أن يعجن الواقع باللغة في سلبياته و ايجابياته. وهو ما تعلن عنه روايته الزلزال، اللاز، عرس بغل و التي حلّل فيها الواقع من منظور إيديولوجي اشتراكي، و فيها علّل و رفض الكثير من المقولات السياسيّة الاجتماعية و الثقافية، و دخل في صراعات حادة مع القريب و البعيد، مُدافعا عن النزعة اللّينينيّة بصوت مُرتفع: ناديت بشيوعيته لا تنفي وجود الله" (39) و الشّرخ الكبير في المُجتمع الجزائري هو اللّغة الفرنسية، هو حياة أقلية تتلاشى و تتقلص..." (40).

إنّ الهويّة الإيديولوجية في نظر وطار لا تُفسد للود قضية طالما أنها لا تتنافى مع تقاليد و مصالح المجتمع، أمّا ما يُفسد المجتمع فهو ذلك الشّرخ العميق في جسد الجزائر وهو هذه الفرانكفونية الضّاربة الجذور ... و الآيلة حتما إلى الانكسار و الانحسار لأنّ البقاء هو الهوية التّاريخية الحقيقيّة للمجتمع الجزائري الذي أغوته الدنيا كما هو الشّأن بالنسبة للحاج كيان في رواية وطار عرس بغل "... هذا الحاج كيان، رجل شريف و نبيل و شهم، كان عالما في جامع الزيتونة، وأنا السّبب في إغوائه، لقد استعنت بكل النساء لأحمله إلى بيتي، و هناك استوليت على لبه، انه لم يكن عشيقي لمجرد العشق" هكذا إنما عشقته لأسباب مجهولة (...) إنه كل شيء بالنسبة إلي كان بلدي، كان قريتي من أجل النساء". (41)

تنامي فكرة الهوية في روايات الطاهر وطار:

كان التأثيث الروائي عند الطاهر وطار ينمو في شكل سيميائي، متنقلا من سياق إلى سياق، مُختزلا مراحل سياسية و اجتماعية و ثقافية و إيديولوجية عاشتها الجزائر، مُقتنعا في ذلك أنّ الخطاب الرّوائي تصنعُه حقيقة الواقع و قد مكّنته مهارته و ذكاؤه و موهبته من تأسيس هوية إبداعيّة خاصّة بكل كيان نصي من روايته. جاءت فيه كل رواية تجسيدا موضوعيا لواقع إديولوجي اجتماعي خاص مُعبرا

بذلك عن رؤية إبداعية للعالم الذي يحيط به بشكل مباشر. و قد شرح الدّارسون هذه الحقيقة، و لعل ما قدّمه الدكتور عبد الله الخطيب. (42) من بعد سيميائي لأعمال وطار الروائيّة في دراسته النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار خير دليل على ما البعد العميق لفكرة الهوية في إبداع وطار والذي خلص فيه إلى أن الدفاع عن الجزائر و عن هويتها التاريخية و اللغوية والعرقيّة والثقافية والحضارية و السياسية و الأمنية لا يكون بالكلام إنّما بالفعل، و قد اعتقد وطار في روايته اللاز أن الإنسان الجزائري الذي يخفق قلبه بالجزائر لابد أن يصنع وجودها من صنع وجوده، و هذا ما فعله اللاز الذي كان بدون وجود و بدون هوية و بدون كيان، لكن شخصيته القويّة و إرادته حوّلته من مجرد متشرد لقيط مجهول الأبوين إلى شخص متكامل ثوري مُناضل بأتم معنى الكلمة لأن انخراطه في الثورة و بسالته جعلته عنترة زمانه و أعطته ثقة بالحياة، و يمثل في نظر الدكتور عبد الله الخطيب هذا اللاز البُعد الرّمزي للشعب الجزائري الذي انتهك الاستعمار عرضه و مسخ هويته حتى عاد بدون هوية، فلم يستسلم للقدر المحتوم الاستعماري و استطاع أن يُحوّل الزمن و المكان لصالحه، مبلورا بفعالية لنفسه مُستقبلا مُتحديا المستحيل مُؤكدا للعالم أجمع أنّ الثورة أعطته الوجود و الكرامة و أنّ الجزائر هي قضية القضايا، و كأني بوطار أبى إلا أن يُثبت هوية الشعب الجزائري، و من ثم فإنّ الثورة التحريرية هي في الجوهر بحث عن الهوية و عن الذات و عن المصير و استرداد لهوية أراد الاستعمار مسخها كلية من الوجود، لكن الثورة حرّرته و أعادت إليه نصاعته و خلصته من عقدة النقص ، و من ثمّ الثورة، ثورة اللاز أو الشعب الجزائري كانت تمرُّدا على الظلم الاستعماري لاستعادة الأصالة العربية و الخروج من سراب الفرنسية التي لا تمت للجزائر بصلة.

و هذا البعد السيميائي في رواية اللاز نجده في شكل رؤى مختلفة في روايات وطار الأخرى، فهو في العشق و الموت في الزمن الحراشي مثلا يدعو إلى تحرير الشعب من يد البرجوازية و يُحفز الإنسان على اكتساب حقوقه الإنسانية في رحاب وطنه و لا يجب إخلاء السبيل لهذه البرجوازية كي تلعب كما

تشاء بالهوية الوطنية، و في رواية الزلزال يدعو إلى ضرورة التسليم بأن العدالة الاجتماعية حق و أن التغيير حتمية و أن الطبقية ليست واقعا مريرا لأن الوعي الذي اكتسبه الشعب لا يسمح بالهيمنة عليه مُجدّدا.

لقد انخرط وطار في الواقع، فكان من أكبر دعاة الواقعية، أسبغ الإبداع بهوية الواقع الذي عايشه، وأضفى عليه مخيلته، بعد ذلك، لينغمس في الهوية الثقافية مُوظفا لأسطورة بكل أشكالها الفلسفية، لكنها لم تُشبع نهمه و هو يرى الحركية السياسية تتحول بدرجة عالية ليدخل في الرد السياسي من موقع مُغاير لمنطقه في الزلزال و اللاز و العشق و الموت في الزمن الحراشي و حتى رمانة، ليدخل متأبطا وجدانا سياسيا آخر مفارق للوجدان الأول، مختزلا في الشمعة و الدهاليز ثم الولي الطاهر بجزأيه الأول و الثاني تجربة واقع سياسي عاشته الجزائر في شكل طفرة سياسيّة رسمها رسما جماليا، غير آبه برفاقه في الإيديولوجيا الذي اعتبروا مرونته الجديدة للعالم "خيانة" للإبداع التقدمي الذي نذر وطار نفسه لخدمته في إبداعه الأول، و لم يتيسر لهؤلاء إثناءه لأنه ختم مجاله الروائي برؤية جديدة للعالم مغايرة في " قصيدٌ في التذلل" مُعلنا أن الرواية ليست تقريرا و لا عرض حال، إنما هي رؤية ومعايشة، ولا يمكن للمبدع أن يكون سلبيا كبطل هذه الرواية. و التي كان الإهداء موجّها فيها إلى مبدع خلافا للمعهود عن الطاهر وطار إلى إبراهيم الكوني الروائي العربي الليبي الكبير الذي أذُهِل به في أيامه الأخيرة باعترافه في حواره (43) و قد رأى فيه مثال المبدع الحامل لرؤية حضارية عميقة خلافا للسائد في الخطاب الرّوائي، و كانت فتنة وطار الثقافية بابراهيم الكوني فتنة إبداعية بالدّرجة الأولى. و لم تكن فتنة إيديولوجية هذه المرة، كما هو الشأن بفتنته بمحمود أمين العالم و حسين مروة و غيرهما، و قد كانت روايته " قصيدٌ في التذلل" تصعيدا في اللهجة ضد سلبية المبدع و المثقف بشكل دقيق، و ربما كان هذا الأمر سبّبا في انحسار قُرّائها، لأن الكثيرين عندما يقرؤونها يجدون شيئا من بطلها فيهم، فيهربون من مشاهدها العارية الصارخة في فكرتها الواصفة لواقع حال المثقف في مرحلة التعدد الحزبي، و الذي لم يجد وطار راحته

فيه: " ... يُقَال و العَالِمُ ربي أن عشرة ملايين صيني بمعاولهم و صفاراتهم و خيامهم في طريقهم إلينا" (44) إنه زمن النمرود الذي يختلط بموجبه الحابل بالنابل، و لا يجد فيه المواطن ضالته لا من الطعام، و لا من السكينة، لأنه يجد نفسه في طابور طويل من الزحام الاجتماعي السياسي.

إنسانية وطار أو الهوية الإنسانية في إبداعه:

الطاهر وطار حامل الدفء الإبداعي،(45) و ما أملكه من الحكمة الإبداعية في سيرة وطار أنه ظل الراعي الأمين للمبدعين، و قد كانت دور الثقافة تتهافت عليه، و هو الذي احتضن تحت جلبابه الإبداعي مُبدعين كباراً في سنوات الفقر الإبداعي أو الفراغ الإبداعي من أمثال واسيني الأعرج وأمين الزاوي و ربيعة جلطي و زينب الأعوج و عمار بلحسن و عمار يزلي و بختي بن عودة ومحمد زتيلي و أحمد حمدي و حمري بحري و أحمد منور و بلقاسم بن عبد الله و يوسف سبتي و مخلوف عامر و عز الدين ميهوبي، و قد أحاطهم برعاية أبوية ثقافية واسعة، حتى انه بعد ذلك رفض خروجهم عليه عندما كبر فيهم عود الإبداع...

و تشهد معركته الحامية مع واسيني الأعرج (46) و هجومه على أمين الزاوي (47) و تحديه الساخر لعز الدين ميهوبي (48)، و هو تحدي مبدع كبير يسكنه جنون الإبداع لا غير لأنه في نهاية المطاف أعطى لإبداع هؤلاء حضورا نوعيا، خاصة أنهم حملوا موقفه محمل الجد بطريقة إبداعية دون التّصريح بذلك، و إن كان واسيني قد دخل معه في مجال إعلامي انتهى في لحظة دقيقة إلى مصالحه ابداعية ثقافية كنا المساهمين فيها، و قد شهدنا على أن الإبداع في النهاية هو المنتصر.

وللإشارة والتنويه بإنسانية وطار و حكمته فإنه حري بنا إن نقرّ أنّه دافع بحكمة المبدع الواعي عن يوسف سبتي الشاعر المبدع و حوّله إلى رمز ثقافي، و اعتبر موته شهادة على همجيّة الفرانكفونية التي اتهمها بالضّلوع في ذلك من خلال حواره مع جريدة الجزائر نيوز الجزائرية (49) ناهيك عن دفاعه عن نزعة مصطفى الغماري الإسلامية صاحب مجموعة خضراء تشرق من طهران الشعرية، و ما رافقها

من اندفاع سياسي منذ البداية، و هو الموقف السياسي نفسه الذي دافع بموجبه عن توقيف المسار الانتخابي بعد حصول الجبهة الإسلامية على الأغلبية البرلمانية و توقيف السلطة آنذاك لعدد كبير من أنصارها و تحويل بعضهم إلى السجون في مناطق نائية بالصحراء في المنطقة المسماة رقان، بل وكان هذا الموقف بارزا في دفاع وطار عن الهوية الإبداعية وفق نزعة إنسانية تقتنع بالرأي الآخر و لا تصادره من خلال تمثله لشخصية الشاعر عيسى لحيلح الذي كان قياديا في الجبهة الإسلامية المسلحة ثم لم يلبث أن دخل ضمن المصالحة الوطنية و كان أحد أطرافها المباشرين ميدانيا، وهو يشتغل الآن بالجامعة الجزائرية (50) و يمثل أحد الأسماء العلمية المقتدرة، مثلما يمثل أحد المبدعين البارزين في الحركة الشعرية الجزائرية، و في السياق نفسه دافع عن عدد هائل من الشّعراء ومدّ يده الإبداعية لهم بصدق و بذكاء من أمثال عز الدين ميهوبي و علي ملاحي و يوسف وغليسي وعياش يحياوي وغيرهم، وكان ذلك يدخل ضمن شعاره الثقافي لا إكراه في الرأي الذي حمله شعارا لجمعية الجاحظية التي أرسى قواعدها ببسالة ثقافية نادرة، و فيها استقبل كل الحساسيات الفكرية والإيديولوجية و السياسية و الثقافية دون مصادرة أو إملاء.

ومن باب الإقرار بالحق أشهد أنّ دفاعه عن كتابي شعرية السبعينيات/ القارئ و المقروء كان فوق الاعتبار في منتصف التسعينات، و لم يخضع لطلب مصادرته من قبل بعض المثقفين المعنيين به والذين اعتبروه كتابا رجعيا، لكنه لم يخضع و رفض الموقف من جذوره " هم الشاعر أن يكون، أن لا يغيب عن الأنظار ، و عن الضمائر، و عن المجامع و المجالس، فيه شيء من الربوبية من حيث وجب الحضور" (51) هو هكذا مهووس بالإبداع و المبدعين، و لذلك يقدمهم في هذا المشهد ""تتحوّل الدّنيا إلى طيف سحري لا لون له، لأن كل الألوان تجمعت فيه، لا شيء في هذا الوجود غير الشاعر يحاول أن ينام من جديد... عندما تروقه الألوان يقول له السلام عليكم، هل تعرف أبا الطيب المتنبي أيها الشاعر؟ أنا نزار قباني، أتتني فعفتها قليل علي سفارة في مدريد، و قليل علي كل الشام، و أنا البياتي،

هجرت عيون العراقيات الفتاكة، و همت على وجهي أبحث عنها لدى الغجريّات يأتينني في المنام فأقول للناس وجدت الكثير منهن. أنا الجواهري أبو الفرات متّ ظمآنا لقطرة من الفرات، أنا سعدي يوسف عندما ينتهي جميع الشيوعيين، و أبقى الشيوعي الأخير، أعيد الأممية الثالثة و الرابعة و أقيم الخامسة و السّادسة، و أبعث ما أنجز حمدان قرمط، أنا المتنبي أمنح الأمارة للأمير، عندما أشاء و انتزعها منه عندما أشاء، ارفعه، و أخَفّضُه، و أذلُّهُ، و هو يسمعني صاغيا يرضى و يغضب كالطفل الصغير أصنع بعواطفه ما أشاء، اصرخ فيهم يا مصر يا دمشق، يا مَن بالعراق، و من بالعواصم كلها، أنا الفتى و لا أحد غيري بفتى، وفّيت و أبيت و عتوت على من عتا..(52) إلخ

هذا هو وطار من خلال هذا المشهد بضعفه و قوته، بمفارقاته، بغموض روحه المتمردة الإنشائية مسكون بالمبدعين، و منهم يقتبس إرادته، يريد الشاعر إنسانا فوق العادة اما أن يكون سلعة رخيصة فلا يقبل، الشاعر متمرّد في نزعته الإنسانية، لا يقع فريسة للإغراءات و الإملاءات، هذا ما كان يؤمن به وطار و هذا ما مارسه في حياته الثقافية، و قد دافع عن ذلك باستماتة في كل مراحله الإبداعية، و وفق هذه النزعة تَهَندَسَت هويته الإبداعية " طريق الشاوي بين عينيه" و هو الشاوي أصلا و فصلا من مداوروش بولاية سوق أهراس و قد قال لمحمد هشام أنا كاتب ولست مداحا، و لم يتردد في المطالبة بحقه المشروع أنا انتظر تكريم أمة و ليس تكريم شلة" و هو الذي آمن بالإبداع و رأى في الجوائز مَفسدة للإبداع و هو الأمازيغي الذي لبس عباءة العربية إيمانا بالوطن و ليس غير ذلك، و بعد سن السّبعين و بعد إلمام المرض به قال بطلاقة و إكبار لا أخاف الموت، و سبق أن قال ذلك عندما كان الإرهاب يحصد في سنوات الجمر المثقفين: " الموت لا يخيفني"، و هذا ما جعل شخصيته تنمو مع الواقع مثل نبتة مزهوة بنفسها على الدّوام، و قد أثبت إنسانيته، و دافع عن وجوده ووجود إبداعه بأنفة كانت تصل أحيانا إلى حد الجبروت و التّطاول، مستمّدا هذه النّزعة من عمّه المتنبّي.

الهويّة الدّينيّة و مرجعيتها في إبداع وطار:

عندما نتصفّح روايات وطار كلّها تتجلّى الهويّة الدّينيّة في إبداعه بشكل واضح، و نلمس ذلك في صيغه و في نبرة الخطاب لديه و في قاموسه و في أسماء الشّخصيّات الرّوائيّة و في استعماله للنّصوص القرآنيّة و تناصه مع قصص الأنبياء و بعض رموزه الحيويّة و مع سير الصّحابة ... و غير ذلك نستشف ثقافة الطاهر وطار الدّينيّة و عمق أثرها في تكوين و بلورة هويته الفكريّة، على ما فيها من تمرّد إيديولوجي نحو البروليتاريه الماركسية و تلوّن فكره بها.

إنّ رؤية الطاهر وطار التي تغرف إلى حدّ كبير معانيها من المعاني القرآنيّة تدلّ دلالة واضحة أنه تشبع إلى حد الشبع بالقرآن و عاش إلى حد النضج في ظل القيم الدينية على الطّريقة الجزائرية " أبي كان شديد الحساسية لجزائريته، مع أنه كان لا يرى باقي الجزائريين إلاّ خدما و عبيدا" (53)، و من هذا المنبع كان يتشرّب وجدانه الصوفي المعجون بنزعة إيديولوجية مادية خاصة، تتصل بالأولياء الصالحين " يا سيدي راشد يا ولي ألفه، قضيت تسع ساعات في الطّريق قادما من العاصمة في هذا الحر، الأمر يهمني و يهمُّ جميع الصالحين الذين أورثهم الله أرضه، لا أخفي عنك فأنت تعلم ما في النفوس، جئت أقطع الطريق بين الحكومة و بين أرضي بتسجيلها على أقاربي، شرط ألا يحوزوها أو ينالوا ثمارها إلا بعد أن أموت، لكن يا سيدي راشد يا ولي الله لم أعثر على أحد منهم، الأول استشهد و الثاني ضابط سام يحلّ و يربط، و الضبّاط يا سيّدي راشد، حتى و إن لم يكونوا يقاسمون الحكومة آراءها و يثقون في سياستها فإنهم لسبب ما، مخلصون لها و من كان منهم يهتم بالمال و العمل على جمعه فإنه يسعى إليه عن غير طريق الفلاحة، أعمال و مشاريع و آلات عصرية يا سيدي راشد، و الثّالث آه من الثالث بعد أن كان دليل العائلة نحو الجنة: زاهدًا مُتعبدا، مقدما في زاوية سيدي عبد المؤمن، آه صار، صار ماذا أقول لك يا سيدي راشد صار شيوعيا، يُحرّض العمال على الإضرابات و يُشوّش أفكار الطلبة و يحثّ الحكومة على المُضي إلى أقصى حد في استيراد المشاريع و الخطط الإلحادية الجهنمية وَعْدَتُك كبيرة يا

سيّدي راشد شمعة بل علبة شمع، إن أوقفت هذا المشروع و حافظت لي و لعباد الله الصالحين على أرضي الهداية لا تنفع معهم يا سيدي راشد، فقلوبهم ملأى بالحقد، و النّصح لا يفيدهم فرؤوسهم محشوة بالغرور و ليس هناك سوى حلّين: نار فتنة تأكلهم، زلزال عظيم يأتي على الرعاع الذين يفكرون في منحهم أرضنا، وَعْدَتك كبيرة يا سيدي راشد"(54) .

إنّ وطار الذي يُكسّر شخصياته بهذه الاعترافات الدّينية التي تحيلنا بشكل ما إلى الواقع الذي تربى في أحضانه وطار حتى صار يتنفسه، "الأولياء الصّالحون" في اعتقاده برنوس يحمي حتى الظَّلَمَة و الفُجّار، إذ لا يستبعد أن يدعو السارق أو الفاجر أن يدعو الله من خلال الصّالحين لتحقيق أغراضه العدوانية ونزواته، وهذه حقيقة إنسانيّة و نزعة قائمة في المجتمع الجزائري، بل و في المجتمع العربي بكامله، وهي تُمثّل ثقافة روحيّة سائدة لدى العوام و حتى بين بعض المتعلمين إن لم نقل عند أغلبهم.

وهذه مادة السّرد عند وطار تتكسّى بلغة القرآن، و تتصاع لإرادتها بشكل بارز في(زلزاله) وفي مختلف رواياته، امتدادًا إلى آخر أعماله (قصيد في التذلّل). إن مثل هذه الصّيغ القرآنيّة التي يتلون بها خطابه بهذا الشكل: " إن زلزلة الساعة شيء عظيم... تذهل المرضعة عمّا أرضعت و تسقط الحوامل، و يسكر الناس بدون خمر، لا يا سيّدي راشد، لا. احمها يا سيدي مسيد، كما كنت تحميها باستمرار ... أرحها من الرّعاع الذين يدنسونها بأبدانهم النجسة و بأفعالهم المنكرة سلط عليهم " طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل .." ثم اصعد إلى قلبها و طهّره ... يا سيّدي مسيد ... سلّط على رجالهم، و العقم على نسائهم، حتى ينقرض نسلهم ...". (55)

إنّ هذا الوصف السردي القرآني في عمومه يمثل بعمق مرجعية لافتة في خطاب وطار و لصيغ رؤيته بهذه النزعة التي تلخص البعد الديني لفكرة الهوية الدينية عنده، و هي فكرة لا تقتصر على رواية دون أخرى، و بقدّر اتّساع نطاق استعمالها، و أشكال هذه الاستعمالات في الزلزال، فهي لا تقل حضوراً و تأثيراً في نسيج الخطاب الرّوائي عنده، لأنّها في الواقع تُشكّل عند وطار ثقافة عميقة " الزلزال إحساس"

" تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت و تضع كل ذات حمل حملها و ترى الناس سُكارى و ما هم بسُكارى" (56)

إنّ مثل هذا التّوظيف يُعطي المحصلة الثقافية لرؤية وطار التي تتغذى بما حملها في رحلة إبداعه وإن قلّ هذا التّوظيف المباشر في خطاب وطار الروائي إلا انه ظل يَمْثُلُ في شكل استلهامات أو استدعاءات مباشرة في روايته الولي الطاهر يرفع يديه بالدّعاء، و كان تشخيصه لفكرة العمى الثقافي و السّياسي و الاجتماعي و الفكري و الاقتصادي في المجتمع العربي تشخيصا قويّا استلهم فيه نصوصا قرآنية بوضوح " العمي أيّها السّادة و السيّدات عوّضهم المولى عز وجل، عن أبصارهم بالبصيرة الحادة و صدق الله العظيم إذ يقول: لا تعمى الأبصار، و لكن تعمى القلوب ..." (57)

وهؤلاء العمي تكمن فيهم المفارقة التي يستمد منها خطاب وطار هويته القومية و سخريته من القادة العرب الذين تتجسم فيهم فكرة العمى، فما هو المُنتظر من حكم العمى " تبقى إذن الآمال معلقة على العمي، الذين نشطوا و الذين أضحوا خطرا لا يُستهان به في بعض البلدان مثل مصر و الجزائر، مصر كما قال مراسلنا اعترتها الحالة و الحديث عن ضرورة التغيير يرد بإلحاح، أما في الجزائر فيُقال إن زيارة وزيرة الدّفاع الفرنسيّة الأخيرة ترتبت عنها زعزعة في قيادات جيشها التي تمكنت أو تكاد من تصفية المعارضة الإسلامية، و التيار العروبي عموما". (58)

إن شخصية عبد الحميد فقراء بما تنطوي عليه من مرجعية دينية و سياسية تسعى إلى استقراء القومية العربية و مُراجعة مبدأ الخلافة (الحكم) فيها " كما أبان النّاطق الرسمي – باسم مجلس الحكم الجديد– باسمه من عشرة أعضاء واحد منهم فقط مُبصر" (59) إنه المبدأ الذي سيسود حركية المجتمع العربي، العمي هو الحكم السّائد و لذلك صار لزاما على جميع وسائل الإعلام الوطنيّة و الأجنبيّة تجنّب استعمال عبارة العَمَي في جميع ما يكتبون أو يقولون.. و ذكّرنا بقوله تعالى: " عبس و تولى أن جاءه الأعمى.." (60) و هو نقد لاذع للمجتمع العربي كله، و الذي صار العميان فيه مرشدين للناس، ولذلك صار من

الممنوع استعمال تسمية العَمَي و استبدالها بكلمة المرشد، إنّ هذا النقد الديني الاجتماعي للواقع العربي السياسي المكرس ، له جذوره التاريخيّة، فقد ورثت الجزائر فكرة الاستعانة بالعمي في الشؤون الأمنية من أيام العهد العثماني، إذ كانت أبوب مدينة الجزائر توكل في الليل للعمي، كي يحرسوها ... و لم يعرف المُؤرخون سبب استعمال العمي في الحراسة، و لكن واضح هنا أن المسألة تعني تحديد دور الحارس بدقة بالغة، عليه أن يفتح الباب، إذا توجب و غلقه بعد ذلك و أن لا يهتم بمن أو بما دخل، احتياط بالغ في الحفاظ على أسرار الدّولة" (61) إنّ الهويّة الاجتماعية السّياسيّة السّائدة في الوطن العربي مكفولة للسّلطة و لا رأي لأحد إلا في حدود ما تطلبه منه، و لذلك فالكل يجب أن ينصاع بإرادته أو بدونها للأوامر العليا، و هذه هي الحقيقة التي نعيشها عن كثب، وهو نقد واقعي لا غبار عليه لأن ثقافتنا التي نعيشها تمثل كتلة واحدة في أكسدتها و في هلاميتها و في أنصهارها لمصلحة الطرف الحاكم باستمرار، ممّا أفرز مجتمعا عربيًّا أعمى ... مجبولاً على قابلية (نعم)، (حاضر) في كل شيء، حتى في إهدار الكرامة الإنسانية.

لقد سعى وطار في بنائه الروائي إلى العمل على تمكين الجسر الواصل بين الواقع الاجتماعي والواقع الأدبي الذي يتكيّف تخييليًّا ليكون خطابا جماليا في رواية أطلق عليها الحوات والقصر والتي بثّ فيها الروائي ثقافة الوعي، و من خلال رحلة ماراطونية اكتسب الخطاب بُعده الدّيني والفكري و الاجتماعي، عبر حافة تمتد من نقطة يمثلها المجتمع البدائي بما فيه من خرافة وغرابة ومجتمع معاصر بما فيه من تهويل و ظلم و استبداد، و قد قطع ذراع علي الحوات ليس جزاء لفعل منكر إنما لأنّه رافض للظّلم و أسبابه، و قد تحقّق حلمه و حلم الكثيرين من دعاة الحقيقة، حيث آل القصر إلى نهاية مأساوية و مقابل ذلك تحقّق حلم المتصوفين، و هي فكرة تتضمن فكرة التطهّر والخلاص و أن الخير في النّهاية هو المُنتصر في هذا الوجود. (62)

إنّ إبداع وطار في جوهره دعوة إلى الخير، و دعوة تتضمن الصّرع بين الخير و الشر، بين الحقيقة و المنكر، بين العدل و الباطل، و بين الطغاة و الاباة و لكن فلسفته الإيديولوجية –عادة– ما تغلب تفسيره لهذه القيم من منطلق مادي اشتراكي تماشيا مع قناعته الفكرية التي بقي متمسكا بها حتى آخر لحظة من عمره، و هو الذي دافع عن لينين و عن لينينيته بشكل حاد، وأذكر أننا في لحظة نقاش قال لي ذلك بمقر الجاحظية: يعتقدون أنني بعد كتابتي للشمعة والدهاليز والولي الطاهر بجزأيه قد تخليت عن قناعتي... أنا ما زلت على عهدي و على لينينيتي ، و لم يكن وطار في هذا الشّأن مهادنا ولا متلاعبا و هو شخصية تحترم ما تقول و تؤمن بما تقول.

إن تعريته للواقع في عرس بغل لم تكن مهادنة، ولم يعتمد فيها لغة المهادنة ، فقد كان الحاج كيان شخصا متناقضا، تماما كتناقض الواقع الذي كان يعيش فيه، يحمل الرجل في ذاته شخصا عارفا حاملا للدين، ضعيفا أمام الأنثى مفتونا بالعنابية و الوهرانيّة و حياة النفوس وغنية وغيرهن من بنات الليل اللائي تمتلئ بهن الدار. إنه ضعيف أمام إغراءات الجسد و أمام الخمر، وغيره من الموبقات، وهذه الهوية كانت محصلة نافذة في السلوك الاجتماعي الجزائري في مرحلة ما بعد الاستقلال، امتدادا إلى منتصف الثمانينات تقريبا، و يعبر عنها العامة بهذا الأسلوب الجزائري: يصلي و يخرق الحجر أي أن نصفه ملاك و نصفه شيطان، يوحد الله و يبيع نفسه لأهوائه و نزواته بلا حدود و هو الشيخ الوقور، المسكون بالبيرة، إنها مفارقة الواقع بكل تناقضاته.

إن الواقع الجزائري، و معه الواقع العربي، واقع منافق، مفارق لشرع الله و للحق، و بعيد عن المنطق، و من ثم فهو مجتمع غير نزيه و غير عادل و يحتاج إلى رصاصة تنهي نفاقه، أو هذا ما أراد إبداءه و طار في الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، لذلك لم يتردّد أن يجعله أشبه بعالم قطط. وهو العالم الذي يرسمه وطار بهذا الشكل السّردي " قُلت إن العراقي الذي كان يتقزز إذا لمس قطا أو كلبا، صار يشتريه بمئات الدولارات و يحتضنه، مُستعملا إياه مصباحا كشافا و المعجزة في نور القطط أنه لا يبصره إلا

حامله، ألم يتفطن الأمريكان و الحلفاء إلى الأمر؟ بلى و قد صار الشغل الشاغل لكل علج، شراء قط، و لقد بلغ سعر القط الواحد مقايضة عشرين رشاشا، أو مدفعا، أو حتى صاروخا أرض جو، إذا كان القط أسود و غير عدواني، إذ يمكن القول أنّ قطط العراق متوحشة بشكل أو بآخر، و كثير منها يستعصي غسله و تنقيته من الطفيليات خاصة البراغيث، إن العراق يعيش حاليا لحظات تآخ و تآلف عجيب بين جنود الاحتلال و بين العراقيّين و بين هؤلاء جميعا و بين القطط. (63)

لقد رفض وطار الإرهاب و دافع عن شرعية الثورة الجزائرية، و أكّد خيبة الجزائر و العالم العربي مع الظّلم الجديد المسمى (إرهاب) و الذي لا يتردّد في إنزال الساطور على شخص يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، مسلم يصلي و يصوم و يحفظ فرجه و عرضه (64)، إرهاب يسبي الناس و ينتهك الأعراض " يهوي الساطور، يتدفق الدم، يتطاير الرأس و لا حركة و لا رد فعل لا للعسكر، ولا للحكومة، بل لا تأخذهم الرّأفة بأم تطلب السّماح لها بتقديم رضعة واحدة لوليدها ... يهوي الساطور على رأسها ...(65) إن وطار مدوّن، واصف، و حكيم في رصد اللحظات الإرهابية التي طغت على الهوية الوطنية، و أساءت بقوة إلى التاريخ، إنه يتساءل من هؤلاء.. و لمصلحة من يخدم هؤلاء و أية فلسفة و أي شرع يدين به هؤلاء الذين صار دينهم هكذا: "هوى، ترنح قبل أن يهوي، هوى" (66)

أكاد أجزم أنّ وطار كان يرصد بكاميرا خاصة ما كان يحدث من وقائع في حياة الجزائريين، بل وكأنه كان يصور التجاوزات و الأخطاء، و هو يدرك كل الإدراك أن الوضع بلغ درجة الاحتقان والعبث و الهول، لأن هوية الشعب الجزائري ليست هي هذه، و لا نعرف كيف تكسرت صورة الجزائر الشاهدة الحرة الشهيدة الواثقة من شخصيتها الطاهرة المتجذرة في الحق و العدل والحب الكبير.

من الرّؤية المتمردة إلى الرّؤية المتعدّدة

إشكالية الهوية ... و مفارقاتها

الطاهر وطار قومي حتى النخاع، و هو لا يُفرق بين وطن عربي و آخر، و حين ينتقد أو يسخر أو يفتخر أو حين يحلل، يتعامل مع الجميع بنفس النكهة و بنفس الرّؤية و المذاق، و من ثم فإن قراءته للتصدعات الاجتماعية، يعمل دائما على تأسيس هوية ثقافية لكتابته و لرؤيته كذلك مثله في ذلك مثلما يفعل الرّوائيّون الكبار (67) و هو على الرغم من ولعه بالهوية الفكرية الماركسية إلى حد الغواية من خلال تعامله مع شخصياته الروائية ، و هو معلن في الزلزال و اللاز و تجربة في العشق و العشق و الموت في الزمن الحراشي و كذا رمانة و عرس بغل و هو قارئ ذكي للواقع، لا يفوته أن يقرأ القهواجي و السويقة و له قدرة هائلة في استنطاق الواقع، و هو المدافع الشرس عن الهوية الحضارية للمجتمع العربي، لذلك لا يتردد في مواجهة الأعداء بهذا التساؤل المشحون بسؤال الهوية: " أين أسلحة الدّمار الشّامل يا مجرمين(*)، و الشّعارات الأخرى و لا يفتأ يسخر من المنظمات الإنسانية من خلال حديثه عن منظمة قومية للعمي (**) و لا يتردد من السخرية من الأنظمة التي تتشابه (الحاج موسى) و (موسى الحاج) و التي سلمت بجدار العار(***) " .. بالنسبة للقطط أقيمت لها مقاطط خاصة تربى فيها ... و يعتبرون ذلك مُهمة قومية، هذه القطط تُسمّن و تصدر إلى الصين الشعبية و الفيتنام، و كل تلكم المنطقة، و قد علمنا أن القطط السورية لها حُظوة كبرى في المطبخ السوري ... فكرة القطط هذه لم تفلح إلا في قطرين هما العراق و السودان و قد برّر بعض العلماء الظاهرة بأن القطط هذه ربما تكون تغذت من لحم الإنسان و لربما تعرّضت لإشعاعات كيميائية غير معروفة..." (68)

إنّ وطار بكل خصوبته الإبداعية على مستوى الرؤية و الطّرح و المعالجة و التصوير والتخييل، ركب تمرّده و اقتنع أن تعرية الواقع هي إستراتيجية إبداعية، لذلك لم تُغره السّياسة ولا المناصب و لا المال و كان بوسعه أن يكون أثرى المبدعين، و كانت أمامه كل الفرص، لكنه فضّل أن

يبقى مشدودا إلى برج الإبداع، لأنه رأى فيه هويته الذاتية، و قد فضل استثمار ماله الخاص في تأسيس جائزة الهاشمي سعيداني القصصية بدل الدخول في سوق أخرى، فأثبتت بذلك أنّ تمرده هو الذي جعله كبيرا... و هو ما جعله يعبر بجدارة عن كونه يمثل ظاهرة ثقافية فريدة في العالم العربي وكانت آراؤه في كثير من المواقع مصدر إزعاج للكثيرين من أصحاب المصالح الضيقة، خاصة من الذين يخافون على مناصبهم.

إن الطاهر وطّار يُمثل بهذا الشكل ظاهرة ثقافية و ظاهرة إعلامية و القراء على اختلاف حساسيتهم الثقافية و قناعتهم الإيديولوجية و الفكرية و الإنسانية كانوا ينتظرون ما كان يقال أو يكتب عن وطار وكانت فتاويه الثقافية و الإبداعية مصدرا ثريا للنقاش المفتوح بين مختلف الأسماء والمستويات وقد كانت وسائل الإعلام تسارع إلى الحصول على ما يقول، و ما يصدر عنه من مواقف أكثر من مسارعتها إلى ما يصدر عن السياسيّين و رجال الأعمال الذين كان الطاهر وطار يقول عنهم أنه أكبر منهم، و كان يزهو بنفسه عندما يفكر في هذا الأمر.

وهو الذي لم يهادن و لم يتاجر في شخصيته، و ظل على شيوعيته المثقفة لا ينكر حق الدين المشبع بالتّراث الإسلامي، و لم يتردّد في الدّفاع عن الإسلاميّين، و بما في ذلك دفاعه عن أقطاب وفعاليات الحزب المنحل جبهة الإنقاذ، و لم يحد عن قناعاته و سجل موقعه و أكّد حضوره و رأى العالم كما أراد، و شرح الحياة كما أراد بروح المبدع الخلاق الغيور على تراثه و انتماءاته، دافع عن الرّأي و الرّأي الآخر، و آمن بما اقتنع انه صحيح، و لم يمارس لغة الإقصاء على أفكار الآخرين، نذر نفسه لخدمة الإبداع أولا و أخيرا. وتلك سجية العباقرة الذين يدينون بالولاء لمحليتهم دفاعا عن هويتهم العميقة.

هوامش و إحالات البحث:

1- ناقش هذه الفكرة مختبر السرديات بالدار البيضاء ، المغرب يومي: 16/15 يناير 2007.

2- هذا ما تؤكده الدراسات التي قُدّمت حول رواية الزلزال خاصة وكذا اللاز ، يراجع علي ملاحي ، هكذا تكلم الطاهر وطار ، المجلد 1 ، 2 ، 3 ، دار كنوز الحكمة.

3- انظر جابر عصفور ، رواية الزلزال ، مواجهة الإرهاب ، قراءات في الأدب العربي المعاصر.

4 – يراجع الحوار ضمن المجلد الرابع ، هكذا تكلم الطاهر وطار ، مقامات نقدية وحوارات.

5 – يراجع المرجع نفسه ، المجلد 4.

6 – يراجع المرجع نفسه ، المجلد 4.

7 – جريدة الجزائر نيوز 28 أكتوبر 2007 .

8 – تراجع جريدة المحقق ع 12 من 04-10 جوان 2006.

9 – جريدة الشعب 25 مارس 1992.

10 – يراجع المجلد الرابع ، هكذا تكلم الطاهر وطار.

11 – تراجع جريدة النصر ، 10 أكتوبر 2006.

12-يراجع في هذا الشّأن هكذا تكلم الطاهر وطار، المقدمة الخاصة بالمجلد الأول، جمع و اختيار و تقديم، أ.د علي ملاحي، كنوز الحكمة، الجزائر، 2011 بدعم من وزارة الثّقافة الجزائرية.

13-الزلزال، الطاهر وطار، ط3، 1980، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ص29.

14-مقدمة رواية الزلزال بقلم المؤلف، ص5.

15-نفسه، المقدمة، ص6.

16–نفسه، ص7.

17–رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الطاهر وطار، طبعة جديدة، 2004، موفم للنشر الجزائر، صفحة الإهداء.

18–دافع عن لويزة حنون أكثر من مرة ، وفي أكثر من مناسبة ، ودافع عنها وهو على فراش الموت من منطلق إيديولوجي بحت.

19–ينظر مثلا حواره الذي يمجّد فيه انتسابه للفكر الاشتراكي حين يقول: في المجلد الرابع، هكذا تكلم الطاهر وطار، جمع و اختيار و تقديم علي ملاحي.

20–جريدة السياسة، عدد يوم 31/30 ديسمبر 1994.

21–رواية الشمعة و الدهاليز – الطاهر وطار، منشورات التبيين، ردمك الجزائر 1995، و قد أهداها للشاعر يوسف سبيتي الذي تنبأ حسب وطار بكل ما حدث في جزائر التسعينات قبل وقوعه ضحية الغدر و العدوان الإرهابي.

22– الشّمعة و الدّهاليز، ص 161.

23– المصدر نفسه، ص160.

24– المجلد الرابع، من كتاب هكذا تكلم الطاهر وطار، جمع و اختيار و إعداد و تقديم علي ملاحي، ص 190، مرجع سابق.

25– نفسه، ص227.

26– نفسه، ص228.

27– نفسه، ص 228.

28– نفسه، ص 173.

29– نفسه، ص164.

30- نفسه، راجع ص 352 – 374، و هي مداخلة تقدم بها وطار ضمن فعاليات الملتقى الأول حول الأدب و الثورة بالجزائر في 21- 29 فبراير 1976 قرأ فيها عددا من الروايات العربية الثورية لعدد من الروائيّين العرب أمثال نجيب محفوظ و حنة مينة و غائب طعمة فرمان و محمد ديب و غيرهم.

31- يراجع حواره مع عياش يحياوي، مجلد 4 من كتابنا هكذا تكلم الكاهر وطار، مرجع سابق، ص 93.

32- نفسه، الصفحة نفسها.

33- نفسه، الصفحة نفسها.

34- تراجع جريدة الجزائر نيوز، الأحد 2007/10/28، الجزائر.

35- الشّمعة و الدهاليز، الطاهر وطار، ص121.

36- المصدر نفسه، ص123.

37- نفسه، ص87.

38- نفسه، ص87.

39- يراجع المجلد الرابع، هكذا تكلم الطاهر وطار، ص516، من خلال قراءة للطيب ولد العروسي في مذكرات الطاهر وطار.

40- يراجع المجلد 4 حوار وطار مع اميل حبيبي، ص137.

41- عرس بغل، الطاهر وطار، ش و ن ت، الجزائر، 1982، ص 147، 148،

42- النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار، د. عبد الله الخطيب يراجع الفصل الخاص بسيميائية العناوين الذي ظهر فيه الفهم العميق لروايات وطار من طرف الدارس العربي.

43- اعتبر وطار إبراهيم الكوني، ظاهرة استثنائية في الأدب العربي، يراجع الحوار مع وهيبة منداس ضمن كتاب هكذا تكلم الطاهر وطار، ج4، ص324.

44- قصيد في التذلل، الطاهر وطار، دار الفضاء، ط1، الجزائر،2010.

45- تراجع مقدمة المجلد الأول من كتابنا هكذا تكلم الطاهر وطار في هذا الشأن.

46- معركة وطار واسيني أخذت أبعادا على صفحات جريدة الخبر، و دخل الأديبان في صراع ثقافي خرج عن اللباقة.

47- شهدنا بشكل شخصي هجومه على أمين الزاوي، و قد طرح ذلك في حوار له ساق فيه موقفه من الزاوي بصفته مديرا للمكتبة الوطنية، تراجع جريدة الشروق الجزائرية و حواره مع غنية قبي، العدد 141/ 04/23 / 2001.

48- أشهد أيضا سخريته اللاذعة من عز الدين ميهوبي في أحد حواراته حتى أنه يعزى أن رواية " قصيد في التذلل" مقصود بها عز الدين ميهوبي، و لكن الشاعر عز الدين ميهوبي أخذ الأمر على علاته، و لم يظهر انزعاجه و ترك وطار يقول ما شاء حتى شبع، راجع، مج 4، حوار وطار مع غنية قبي، جريدة الشروق، ع/14 في 23 / 10 / 2007.

49- يراجع حواره مع جريدة الجزائر نيوز، ع 2007/10/28 من خلال المجلد الرابع، هكذا تكلم الطاهر وطار.

50- أعرف الشاعر عيسى لحيلح و أعرف همه الكبير و درجة المعاناة الإنسانية التي عاشها و التي جعلت وطار يتعاطف معه بإكبار و من منطلق ثقافي بعيدا عن السّياسة.

51- قصيد في التذلل ، الطاهر وطار ، الفضاء الحر ، الجزائر ، ط2010/1 ، ص 85.

52- نفسه ، ص 86 ، ص 87.

53- الزلزال، الطاهر وطار، ص175.

54- نفسه، ص132،133.

55- نفسه، ص47.

56- نفسه، ص45.

57- الولي الطاهر يرفع يديه بالدّعاء، ص59، موفم للنشر، الجزائر، 2005.

58- نفسه، ص59.

59- نفسه، ص67.

60- نفسه، ص66.

61- نفسه، ص69.

62- الحوات و القصر، الطاهر وطار، ص 267، 268.

63- الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، ص56.

64- الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الطاهر وطار، ص89.، موفم للنشر، الجزائر، 2004.

65- نفسه، ص90.

66- نفسه، ص91.

67- مجلة فصول، ع 79 / شتاء ربيع 2011، ص77 ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة .

68- الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، ص80.

** نفسه، ص53.

*** نفسه، ص38.

69- نفسه، ص58، 59.